

الدِّين الإسلامي والأخلاق ودورهما في بناء المجتمع

زكرياء بركات : طالب دكتوراه

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر 1

مفهوم الدِّين :

- أ/- معنى الدِّين في الاصطلاح القرآني : لَخَّصَ الأستاذ "المودودي" - رحمه الله تعالى - المعاني اللُّغويَّة لهذه الكلمة بأربعة معاني¹ هي :
- 1- القهر والسُّلطة والحُكم والإكراه على الطَّاعة
 - 2- الطَّاعة والعَبَديَّة والخِدْمة وقبول الدَّيَّة والخُضُوع
 - 3- الشَّرع والقانون والطَّريقة والمذهب والمِلَّة والعادة والتَّقليد
 - 4- الجزاء والمكافأة والقضاء والحِسَاب

ب/- عند العالم الاجتماعي "إميل دوركايم" : يقول العالم والفيلسوف الاجتماعي "دوركايم" في "الصُّور الأوَّليَّة للحياة الدِّينيَّة" : ((الدِّين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلِّقة بالأشياء المقدَّسة (أي المعزولة المحرَّمة) اعتقادات وأعمال تضمُّ أتباعها في وجدةٍ معنويَّة تسمَّى المِلَّة))².

ج/- عند الإسلاميين: الدِّين عندهم هو: وضع إلهي يُرشدُ إلى الحقِّ في الاعتقادات، وإلى الخير في السُّلوك والمعاملات³.

مفهوم الأخلاق :

أ/- لغةً: الأخلاق جمع خُلُق، ومن معانيه في اللُّغة: الطَّبع والسَّجَّة والعادة، يقول ابن منظور " في +لسان العرب" : (واشتقاق خُلُق وما أخلقه من الخلقة؛ وهي التَّمْرين، من ذلك تقول للذي ألف شيئاً: صار ذلك له خُلُقاً؛ أي: مرن عليه، ومن ذلك الخُلُق الحَسَن).

ب/- اصطلاحاً: حيث اختلفت وُجّهات النّظر في تعريف مصطلح +علم الأخلاق"، وذلك تبعاً لاختلاف الغاية منه في نظر المعرّفين من جهة، وتبعاً لنوع ثقافتهم من جهةٍ أخرى.

فهناك من قال: هو علم العادات، وهناك من قال: هو علم الإنسان (تعريف +باسكال")..... إلخ.⁴

إلّا أنّه من الممكن وضع تعريف عام يصوّر الإطار العام لذلك العلم ويحدّد القدر المشترك بين مختلف التعريفات والمتفق عليه عند العلماء والباحثين لا في طور دون طور، ولا لجماعة دون أخرى؛ وإنّما في مختلف الأزمان، ولدى مختلف الجماعات والأمم، وذلك التعريف هو أنّ +علم الأخلاق": هو العلم بالفضائل وكيفية توقيها لئبتعد أو يتحلّى عنها، والإلمام بقواعد السلوك الإنساني، وبالمقياس الذي تقاس به أعمال الإنسان الإرادية، فيحكم عليها بأنّها خير أو شرّ، مع تحديد الجزاء لكلّ منهما.⁵

موضوع علم الأخلاق: إنّ موضوع علم الأخلاق هو +الأعمال الإنسانية الإرادية"، وسبب تقييدنا للأعمال الإنسانية بكونها +إرادية" هو أنّ هناك الكثير من الأعمال الإنسانية اللاإرادية لا شأن لعلم الأخلاق بها؛ لأنّ وصف الأعمال بالخيريّة والشريّة مشروطٌ بكون هذه الأعمال صادرة عن إرادة حرة مختارة، حتّى تتحقّق أركان المسؤولية الخلقية.⁶

الرباط الروحي وتماسك المجتمع: إنّ الخدمة الجليلة التي تؤدّيها الأديان للجماعة لا تقف عند هذا الحدّ، فليست كلّ مهمّتها أنّها المبعث القوي لتهذيب السلوك، وتصحيح المعاملة، وتطبيق قواعد العدل، ومقاومة الفوضى والفساد؛ بل إنّ لها وظيفة إيجابية أعمق أثراً في كيان الجماعة، ذلك أنّها تربط بين قلوب معتقيها برباطٍ من المحبة والتّراحم، لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللّغة أو الجوار أو المصالح المشتركة. بل إنّ هذه العلائق مجتمعة مهما يكن أثرها الظّاهري من كفّ الأذى وبذل المعروف المتبادل، تظلّ روابط سطحيّة تضمّ الأفراد كما تضمّ الأعواد في ضغث، ولا تزال تتخلّلها الفجوات والتّغرات والحواجز النفسيّة... جتّى

تشدّها رابطة الأخوة في العقيدة والمشاركة في المثل العليا ، فهناك تعود الكثرة وحدة ، وتصبح النفوس كالمرايا المتقابلة تنعكس صور بعضها على بعض. بل كثيراً ما تستغني هذه الوحدة الروحية عن سائر الوحدات الأخرى فتتعد بها أقوى الوشائج وأدومها بين أفراد اختلفت أجناسهم ، وتباينت لهجاتهم ، وتباعدت ديارهم ، وتفاوتت مصالحهم. وكثيراً ما نرى الدول التي تقوم على قاعدة المصالح المشتركة في الوطن بين مللٍ مختلفة تضطّر إلى الاستجداء بما في هذه الأديان كلّها من مبدأ التعاون على الخير ، والتناصر على دفع عدوان المغيرين ، ولذلك قيل بحق: إنّ الوطنية التي لا تعتمد على باعثة من الخلق والدين إنما هي حصنٌ متداع يوشك أن ينهار ⁷.

تربية الأطفال عند +الغزالي+:

ويسمّيها +الغزالي+ "رياضة الصبيان" ، وقد وضع +الغزالي+ منهجاً لتربية الطفل يركز أساساً على واجبات الآباء؛ إذ يجب - كما يرى الغزالي - على الوالد ما يلي:

- 1- أن يؤدّب ابنه ويهدّبه ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء.
- 2- وأن لا يحبب إليه الرّينة وأسباب الرّفاهية؛ لئلاّ يتعوّد التّنعّم فيعسر تقويمه بع ذلك.
- 3- وإذا رأى فيه مخائل التّمييز وبوادر الحياء فليعلم أنّ عقله مشرق ، وأنّ تنمية هذه الباكورة من عزم الأمور ، وأحسن ما تمنى به أن تستعان في تأديبه وتهذيبه.
- 4- وليعلم أنّ أوّل ما يغلب الطّفل شرّ الطّعام؛ فينبغي أن يؤدّب في ذلك ، وأن يعوّد أخذ الطّعام بيمينه والبدء باسم الله والأخذ ممّا يليه ، وعدم السّبق في الطّعام ، وعدم تحديق النّظر إليه وإلى من يأكل معه ، والتّمهل في الأكل وإجادة المضغ ، وعدم الموالاة بين اللّقم ، والحذر من تلطّخ اليد والثّوب ، وتعوّد الخبز القفار ⁸ في بعض الأحيان حتّى لا يرى الادام حتماً.
- 5- وينبغي أن يقبّح عنده كثرة الأكل؛ بذمّ الطّفل الشرّ ومدح المتأدّب القليل الأكل ، وأن يحبب إليه الايثار بالطّعام وقلة المبالاة به ، والقناعة بأيّ طعام كان.

6- وَأَنْ يُحَبِّبَ إِلَيْهِ الْأَبْيَضُ مِنَ الثِّيَابِ دُونَ الْمَلَوْنِ، وَأَنْ يَفْهَمَهُ أَنَّ تَلْوِينَ الثِّيَابِ لَيْسَ عَادَةً الرِّجَالِ؛ وَإِنَّمَا هُوَ عَادَةُ النِّسَاءِ وَالْمَخَشَّيْنِ، وَأَنْ يَحْفَظَهُ مِنْ مَخَالَطَةِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ عَوَّدُوا التَّعَمُّ وَلَيْسَ الثِّيَابُ الْفَاخِرَةُ، وَمَنْ مَخَالَطَةُ كُلِّ مَنْ يُسْمَعُ مِنْهُ مَا يُرْعَبُ فِي ذَلِكَ.

7- وَإِذَا ظَهَرَ مِنَ الطِّفْلِ فَعَلٌ مَحْمُودٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُجَازَى عَلَيْهِ بِمَا يَفْرَحُ بِهِ، وَأَنْ يُمدَّحَ أَمَامَ النَّاسِ، فَإِنْ أَسَاءَ مَرَّةً فَيَجْمَلُ بِالْوَالِدِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهُ وَلَا يَكْشِفُهُ؛ وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَسَتَّرَ الطِّفْلُ وَاجْتَهَدَ فِي الْإِخْفَاءِ، فَإِنَّ مَكَاشِفَتَهُ قَدْ تَزِيدُهُ جَسَارَةً وَعَدَمَ الْمَبَالَاةِ، فَإِذَا عَادَ فَلْيَعَاتَبْ سِرًّا، وَلْيَحْذَرْ عَوَاقِبَ الْإِفْتِضَاحِ، وَلْيَكُنِ الْعَتَبُ قَلِيلًا لئَلَّا يَهُونَ عَلَى الطِّفْلِ وَقَعَ الْمَلَامِ وَسَمَاعَ التَّأْنِيبِ وَرُكُوبَ الْقَبِيحِ.

8- وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْنَعَ مِنَ النَّوْمِ نَهَارًا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يورث الكسل ولا يمنع منه ليلاً، ولكن يمنع الفراش الوثير لتصلب أعضائه ويُعوّد خُشُونَةَ الْفِرَاشِ.

9- وَيَجِبُ أَنْ يُمْنَعَ مِنْ كُلِّ مَا يَفْعَلُهُ خَفِيَّةً؛ فَإِنَّهُ لَا يُخْفِي إِلَّا مَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ قَبِيحٌ.

10- وَلْيُعَوِّدَ الْمَشْيَ فِي النَّهَارِ لِتَحَبُّبِ إِلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالرِّيَاضَةُ.

11- وَلْيُمْنَعَ مِنْ كَشْفِ أَطْرَافِهِ.

12- وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْنَعَ مِنَ الْإِفْتِخَارِ عَلَى أَقْرَانِهِ بِشَيْءٍ مِمَّا يَمْلِكُهُ وَالِدُهُ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْ مَطَاعِمِهِ وَمَلَابِسِهِ، أَوْ لَوْحِهِ وَأَدَوَاتِهِ؛ بَلْ يُعَوِّدُ التَّوَاضُّعَ وَطَيْبَ الْحَدِيثِ. وَيَنْبَغِي أَنْ يُعَوِّدَ أَنْ لَا يَبْصُقَ فِي مَجْلِسِهِ، وَلَا يَمْتَخِطُ، وَلَا يَتَنَاقَبُ بِحَضْرَةِ غَيْرِهِ، وَلَا يَسْتَدْبِرُ سِوَاهُ، وَلَا يَضَعُ رِجْلًا عَلَى رِجْلٍ، وَلَا يَضَعُ كَفَّهُ تَحْتَ ذِقْنِهِ، وَلَا يَسْنُدُ رَأْسَهُ بِسَاعِدِهِ، وَيُعَلِّمُ كَيْفِيَّةَ الْجُلُوسِ، وَيُمْنَعَ كَثْرَةَ الْكَلَامِ.

13- وَيَجِبُ أَنْ يُمْنَعَ الْقَسَمُ؛ صِدْقًا كَانَ أَوْ كَذِبًا، لئَلَّا يَعْتَادَ ذَلِكَ.

14- وَلْيُعَوِّدَ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ إِلَّا مُجِيبًا؛ وَبِقَدْرِ السُّؤَالِ، وَأَنْ يُحَسِّنَ الْإِسْتِمَاعَ إِذَا تَكَلَّمَ غَيْرُهُ مِمَّنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًا، وَأَنْ يَقُومَ لِمَنْ فَوْقَهُ وَيَفْسَحَ لَهُ الْمَكَانَ.

15- وَيَجِبُ أَنْ يُمْنَعَ مِنْ لَغْوِ الْكَلَامِ، وَمِنْ اللَّعْنِ وَالسَّبِّ.

16- وَلْيُعَوِّدَ الصَّبْرَ إِذَا ضَرَبَهُ الْمُعَلِّمُ؛ فَلَا يُكْثِرُ الصَّرَاحَ وَلَا يَسْتَشْفَعُ بِأَحَدٍ، وَلْيَذْكُرْ لَهُ أَنَّ الصَّبْرَ دَابُّ الشُّجْعَانِ وَالرِّجَالِ، وَأَنَّ كَثْرَةَ الصَّرَاحِ دَابُّ الْمَمَالِكِ وَالنِّسَاءِ.

- 17- وينبغي أن يُؤدّن له بعد الانصراف من المكتب باللّعب الجميل يستريح به، فإنّ منع الصّبي من اللّعب يميّت قلبه، ويخمد ذكاءه، ويحمّله على الاحتيال للخلاص من الكتاب.
- 18- وينبغي أن يُعلّم طاعة والديه ومعلّمه ومؤدّبه، وكلّ من هو أكبر منه سنّاً؛ من قريبٍ وأجنبي.
- 19- وإذا بلغ سنّ التّمييز فينبغي أن لا يُسامح في ترك الطّهارة والصّلاة، ويُؤمر في بعض أيّام الصّوم، ويُعلّم كلّ ما يحتاج إليه من أمور الشرع.
- 20- وليُخوّف من السرقة وأكل الحرام، ومن الخيانة والكذب والفحش، وكلّ ما يغلّب على الأطفال.⁹

وجوب غرس ثقافة + أنّ القيمة للعمل والسلوك:

حيثُ يكمن ذلك من خلال تعويد النّاس على أن يكون موقفهم وسلوكهم معبراً عن مضمونهم، وتبيان سلبية الاكتفاء بالإثبات النظري للموقف، أو قسم اليمين؛ لإثبات صحّة ما يتحلّون به من صفاتٍ، فإنّ سلوكاً ينعكسُ على الآخرين أفضل من بيانات ومطولات؛ لإثبات سلوك غير بارز بين النّاس. إنّ الصّدق سلوكٌ وليس ادّعاءً، والأخلاق الحسنة سلوكٌ وليس كلاماً، والتّعاون مع الآخرين سلوكٌ وليس فكرة مجرّدة، قال تعالى: ((وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتَرْدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ))¹⁰، ومن المفيد في هذا المجال إقامة برامج تدريبية للسلوك؛ من خلال الأنشطة المدرسيّة التي تتطلّب تعاوناً وصبراً وسهراً وتضحية...، ومن خلال الرّحلات التي تكشف طبيعة الأفراد، وتمكّن المسؤولين من التّوجيه العملي المباشر؛ بل يكون من خطّتهم في الرّحلة تحقيق جملة أهداف منها: التّعاون بين الأفراد، والإيثار في المقعد أو الطّعام، والخدّمة الجماعيّة بتهيئة المكان، والكلام المهذب في التّعاطي مع بعضهم...، وهذا ما يستلزم أن لا تقتصر تلك الأنشطة على العبادة كما في بعضها، أو على التّرفيه فقط كما في بعضها الآخر؛ بل يمكن رسم مجموعة من الأهداف لتحقيقها: عن طريق تعزيز السلوك من خلال العمل.¹¹

العبادات بَوَابَة تصويب السُّلوك :

قد يسأل البعض: كيف لنا أن نشجّع المتعلّمين على ممارسة العبادات باهتمام واستمرار؟ وكيف نحفّزهم ليشعروا أنّها تؤنسهم وتريحهم؟

قال تعالى: ((اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ))¹² ، وهكذا في الصَّوم: ((...لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ))¹³ ، وفي الحج: ((...وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ))¹⁴ . فمهما اجتهدنا في اختيار الأساليب التربويّة النّاجحة فإنّه لا غنى لنا عن عبادات الإسلام؛ بوصفها بَوَابَة للسُّلوكِ الفاضل، والانتهاه من الفحشاء والمنكر، ولذا يترتّب علينا أن نُقنِعَ المتعلّمين بأنّ لا قيمة لهم من دون العبادة، وأنّ حياتهم ستذهب سُدى إذا لم يؤدّوا فرائضهم في هذا المجال، وأنّ نحفّزهم بالتشجيع والاحترام والتقدير والمكافأة والتمييز عند اهتمامهم بالعبادات.¹⁵

من خصائص ومظاهر الفكر الإسلامي الأصيل :

إنّ من خصائص ومظاهر الفكر الإسلامي الأصيل أنّ: الفكر لا ينفك عن السُّلوك، ولا تتفصل العقيدة عن العمل، وعمل الإنسان أيّاً كان نوعه ترجمة لعقيدته ودعوة إليها، وحراسة لها، فالشاعر يعبرُ بشعره عن فكرته وعقيدته، والفنان يترجم عن فكرته الإسلاميّة بريشته، والمعماري يبدي الملامح الحضاريّة الإسلاميّة في شكل عمارته، هكذا المسلم على اختلاف عمله ومهنته تبدو لديه روح الإسلام؛ إلّا أنّنا نجد في الفكر العربي المعاصر من يعمل على التفكيك بين الفكر السُّلوك، وإبطال لزوم العلاقة بينها، ممّا تجلّ بالفعل في مظاهر عديدة في مجتمعاتنا المعاصرة، والفكر الحداثي من بين تلك الاتجاهات الفكرية التي عمّلت على ذلك مقترحة مشروع الحداثة المخرّج للأمة من التخلف إلى المعاصرة؛ منطلقة من مصدري الدين الإسلامي ومرجعياته (القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة). إلّا أنّ الحداثة عندنا - كما يقول الدكتور +طه عبد الرحمن¹⁶ - غير المعاصرة، إذ أنّ الحداثة ترتبط بأسباب التاريخ الحضاري والتقاليد للمجتمع

الغربي، في حين أنَّ المعاصرة لا يجبُ فيها مثلُ هذا الارتباط، إذ أنَّ القارئ العصري يأخذ بمختلف منجزات عصره من غير أن يشتغل بإعادة إنتاج الأسباب التاريخية الخاصة لهذه المنجزات؛ بل قد يسعى إلى أن يستبدل مكانها أسباب تاريخية أخرى تخصُّ مجال التداول الذي يشهد قراءته ويتلقاها.¹⁷

عناصر الدَّعوة الإسلامية:

هناك ثلاثة عناصر اقترنت وتلازمت في الدَّعوة الإسلامية منذ قيام النَّبي صَلَّى الله عليه وسلَّم بها¹⁸، وهي:

أ- الفكر الذي يتَّمم به الإقناع؛ والذي كانت تنزل به الآيات لمخاطبة المشركين وإقناعهم، والتَّأثير في نفوسهم ابتداءً من دعوتهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر.

ب- التزام النَّبي صَلَّى الله عليه وسلَّم ومن آمن معه وأصبحوا صحابته بتعاليم الإسلام التي نزلت في الظَّاهر والباطن؛ أي بالعمل بها واستشعارها في نفوسهم المتَّصلة بالله.

ج- التَّحرُّك في سبيل الدَّعوة ونشرها وما يستلزم ذلك من تدبير وتنظيم جماعي. وهذا شأنُ جميع الدَّعوات، إذ أنَّ لها فكرة تقوم عليها وخطة عملية أو حالة نفسية تناسبها، وتنظيماً حركياً مناسباً لها.¹⁹

واجب المرء نحو إخوانه في الدِّين:

- 1- أن لا يؤذي أحداً منهم بفعلي أو قول.
- 2- أن يتواضع لكلِّ منهم ولا يتكبر عليه.
- 3- أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام؛ مهما غضبَ عليه.
- 4- أن يُحسِّنَ إلى كلِّ من قدر على الإحسان إليه منهم؛ بلا تمييز.
- 5- أن لا يدخل على أحدٍ منهم إلَّا بإذنه؛ بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف.
- 6- أن يُخالقَ الجميع بخُلُقٍ حسن، ويُعامل كلَّ امرئ بحسب طريقته، فإنَّه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم، والأمي بالفقه، والعيي بالبيان: أذى وتآذى.
- 7- أن يوقِّرَ المشايخ، ويرحم الصِّبيان.

- 8- أن يكون مع الكافّة مستبشيراً طلق الوجه رقيقاً.
- 9- أن لا يَعيدَ مسلماً بوعديّ إلاّ ويفي به.
- 10- أن يُنصِفَ النَّاسَ من نفسه؛ فلا يُعاملهم إلاّ كما يُحبُّ أن يُعاملوه.
- 11- أن يزيدَ في توقير من تدلّ هيئته وثيابه على علوّ منزلته.
- 12- أن يُصلِحَ ذات البين مهما وجد إلى ذلك سبيلاً.
- 13- أن يستر عورات المسلمين كلّهم.²⁰
- 14- أن يشفعَ لكلّ من له حاجة من المسلمين إلى مَنْ له عنده منزلة، ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر.
- 15- أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره؛ مهما قدير، ويردّ عنه، ويناضل دونه، وينصره؛ قياماً بأخوة الإسلام.
- 16- أن يتّقي مواضع التُّهم؛ صيانةً لقلوب النَّاسِ عن سوء الظَّنِّ، ولألسنتهم عن الغيبة.
- 17- أن يُجامل أخاه، ويواسيه إذا بليّ بشرّ.
- 18- أن يجتنبَ مخالطة الأغنياء، ويختلط بالفقراء والمساكين.²¹

أثر العقيدة الدّينية في توجيه الفرد والمجتمع:

لقد كان هذا الرّباط الوثيق بين القوي المختلفة لطبيعة الإنسان - وهي: النَّفس، والعقل، والوجدان - العامل الأوّل في الصّلة القائمة بين سلوك الفرد أو الجماعة، وبين ما يدينان به من معتقدي ديني معيّن، أو يؤمنان به من دياناتٍ أو مذاهبٍ أو قيمٍ.

وليس من المعقول أو المعهود أنّ شخصاً ما يكون على عقيدة معيّنة، ويرسخ إيمانه بدين خاصّ ثمّ تأتي تصرّفاته مناقضة لمبادئ هذه العقيدة، أو يأتي سلوكه مخالفاً لتعاليم هذا الدّين ومتكّراً لأوامره ونواهيه؛ اللّهمّ إلاّ إذا كان اعتقاده زائفاً أو تدينه ظاهريّاً فحسب، أو إيمانه بهذا المعتقد مجرد تقليد للآخرين من غير تصديق قلبيّ أو رضى نفسي يصلّ إلى حدّ اليقين. أمّا إذا وصل بمعتقدده إلى درجة التّصديق الجازم والإيمان الراسخ، وبلّغ تدنّيه بهذا المعتقد أو هذا الدّين إلى

حدّ الاقتناع المبني على الرّضى والقبول والتّسليم الحقيقي بكلّ ما جاء به هذا الدّين؛ فإنّه عندئذٍ يستحيلُ عليه أن يُخالفَ أمرَ هذا الدّين أو يُناقِضَ مُقتضى هذه العقيدة... هذا؛ ونجد بأنّ الإسلام قد ربّطَ بين الفرد والمجتمع بأوثق الروابط بعد أن وضعَ المقوّمات الضّروريّة لكيان كلّ منهما، ذلك الكيان الذي لا يمكن أن ينفصلَ عن كيان الآخر أو يحيا بدونه. ومن هنا وجبَ أن يعمل الفرد على تكميل نفسه كوسيلة للبلوغ بمجمّعه إلى الكمال²². ويجب على المجتمع أن يستكمل كلّ عناصر الحيويّة وطاقاتها ليفيض منها بدوره على كلّ فردٍ من أفراده فيضاً عادلاً متكافئاً محققاً للعدل الاجتماعي والوجود الإنساني، ومن أدقّ ما قيلَ في تصوير هذه العلاقة بين الفرد والمجتمع تلك العبارة التي قالها أحد الفلاسفة تعبيراً عن هذا المعنى: +إذا لم تكن لنفسك فلمن تكون؟، ولكن إذا كنتَ لنفسك فقط فلم تكون؟²³.

المستقبل للإسلام: إنّنا عندما نتحدّث عن النّظام الاجتماعي الإسلامي فنحنُ لا نتحدّثُ عن نظام تاريخي عاش في الماضي وأصبح إحدى ذكريات التّاريخ..؛ إنّما نتحدّثُ عن نظام حي، وننظر في صوره وأوضاعه كما يُمكن أن يكون الآن أو في المستقبل. وكذلك نحنُ لا نتحدّثُ عن هذا النّظام بوصفه نظاماً محلّياً في حدودٍ ما يُعرّف اليوم باسم +العالم الإسلامي"؛ إنّما نتحدّثُ بوصفه نظاماً عالمياً يمكن أن تتّجه البشريّة كلّها إليه بحكم أنّ النّظام الوحيد الذي يملك أن يلبي حاجات هذه البشريّة في حدودٍ أوسع، وإلى أمادٍ أطول؛ من كلّ نظام عرفته الإنسانيّة حتّى هذه اللّحظة. يقول الفيلسوف الإنجليزي المعاصر +برتراند راسل": ((لقد انتهى العصرُ الذي يسودُ فيه الرّجلُ الأبيض - وبقاء تلك السّيادة إلى الأبد ليس قانوناً من قوانين الطّبيعة - واعتقدُ أنّ الرّجلَ الأبيض لن يلقى أيّاماً رضيّة كتلك التي لقيها خلال أربعة قُرُون))²⁴، وهذه نبوءة صحيحة على ضوء الوقائع التي تتمحّضُ عنها هذه الأيّام، وعلى ضوء التّجارب الإنسانيّة فيما سلف من حضاراتٍ، وعلى ضوء الحقائق الأساسيّة للحياة البشريّة. لقد انتهى العصر الذي يسودُ فيه الرّجلُ الأبيض؛ لأنّ حضارة الرّجلُ الأبيض قد استنفدت أغراضها، ولم

يعد لديها ما تُعطيه للبشرية من مبادئ وأفكار تسمح للحياة بنمو جديد وتطور جديد، وكل حضارة إنما تعيش بمقدار ما تملك أن تُعطي البشرية من رصيد في إدراك الحياة، وبمقدار ما يسمح هذا الرصيد للحياة بالامتداد والثمو والتّرقّي. ولقد كانت مبادئ الثورة الفرنسية (الحرية - الإخاء - المساواة) هي آخر ما أثمرته حضارة الرجل الأبيض في الغرب، ولم تُثمر بعد ذلك شيئاً ذا قيمة في عالم المبادئ والمثل والأفكار، ولقد أدّت مبادئ الثورة الفرنسية دورها في العالم الغربي وانتهت إلى غاياتها التي كانت تعنيها في إبانها...²⁵. ولكن هذه الغايات كانت محدودة بفترة معيّنة من الزمن، وبآفاق محدودة من المدلولات؛ إذ لم تعد تُلبّي اليوم حاجات البشرية، ولم تعد مراميها التي قصدت إليها حينذاك تُلبّي مفاهيم البشرية لهذه الألفاظ ذاتها في القرن العشرين.

((وكان مدلول كلمة +الحرية" في الثورة الفرنسية هو الحرية الشخصية في كلّ ميدان من ميادين الحياة، وكان هذا المفهوم يلبي حاجة أوروبا في ذلك العصر؛ لأنّه يُنقذ الفرد من تحكّم الكنيسة في حياته الروحية، ومن تحكّم الإشراف في حياته العملية، ومن تحكّم الدولة في حرياته القانونية...، ولكن شيئاً فشيئاً أخذت الحرية المطلقة للأفراد تُؤذي المجتمع أو تُؤذي طبقات كبيرة في هذا المجتمع، وبيروز العهد الرأسمالي بكلّ مقوماته كثمرة من ثمرات الحرية تبين أنّ الحرية الفردية ذاتها قد أصبحت وهماً لا حقيقة له في الواقع؛ بل تحوّلت إلى حرية الاستغلال: استغلال رأس المال للطبقات العاملة، ولم يعد بدّ من نشوء مفهوم جديد لكلمة الحرية غير المفهوم الذي عنّته الثورة الفرنسية أو اعتناق مبدأ جديد غير مبدأ الحرية. وفي كلتا الحالتين يبدو أنّ هذا المبدأ بمفهومه في الثورة الفرنسية قد استنفد أغراضه، ولم يعد يملك أن يكون مؤثراً إيجابياً في حياة البشرية، ولقد بهت مدلول هذا المبدأ في فرنسا ذاتها اليوم؛ فأصبح لا يعني سيوي حرية الشهوة الغريزية²⁶ على النحو الذي تميّزت به "الوجودية".

كما كان مدلول كلمة +المساواة" في الثورة الفرنسية هو المساواة في الحقوق السياسية والحقوق القانونية التي تكفل لكل فرد حقوقاً متساوية في

الانتخابات وأمام القانون في التّقاضى، وكان هذا المفهوم يُؤدّي للحياة البشريّة في أوروبا خدمةً كبيرةً إذ ذاك؛ لأنّه يُخضع الكنيسة ويخضع الأشراف للمحاكم المادّية وللقوانين العادية التي يقف أمامها أفراد الشعب، كما يخضعهم للضرائب العامّة، ويقضي على تلك الامتيازات التي كانت تعطي نظام الطبقات معنىً كريماً وصورةً تُزري بالقيمة الإنسانيّة للكثرة العظمى من الجماهير...، ولكن شيئاً فشيئاً أخذ يبدو أنّ هذه المساواة القانونيّة لا يُمكن تحقيقها في عالم مادّي حين تختلّ الموازين الاقتصاديّة، وحين ينقسم النّاس إلى ملاك ورأسماليّين في جانب، وعمّال ضعفاء أمام رأس المال من جانب آخر فتولد علاقات الإنتاج نوعاً من الضّغط تنهّوى أمامه تلك الحقوق النّظريّة التي يكفلها القانون النّظري للجميع، وبذلك يسقط مبدأ "المساواة" ويصبح لابدّ لتحقيقه في عالم كالعالم الغربي من ضمانات أخرى غير الضّمانات القانونيّة النّظريّة: ضمانات اقتصاديّة وعلاقات إنتاج أخرى غير التي كانت تقوم على مبدأ "الحرية"...، ومعنى هذا أنّ مبدأ "المساواة" حسب مدلوله في الثّورة الفرنسيّة قد استنفد أغراضه، ولم يعد يملك مؤثراً إيجابياً في حياة البشريّة.

وأما مبدأ "الإخاء" فلم يكن له يوماً ما مدلول حقيقي في العالم الغربي؛ لأنّه يحتاج في تحقيقه إلى عنصر آخر غير المادّة، يحتاج إلى روح وإلى ضمير، كما يحتاج إلى فكرة أخرى عن الحياة وعن البشريّة غير الفكرة المادّية التي تسيطر على أوروبا منذ أيام الرّومان، والتي لم تستطع المسيحيّة أن تُؤثّر فيها تأثيراً يُذكر. وبذلك ظلّ مبدأ الإخاء منذ اليوم الأوّل مسألة نظريّة تُقال في الخطب وتُكتب في الصّحف والكتّيب، ولكن مدلولها العملي بعيد عن واقع الحياة، إذ أنّ الشّعور بالأخوة الإنسانيّة مسألة أكبر من ثورة محلّيّة لا تتورّع في ذات الوقت عن الغزو والاستعمار لمجرد المغايم المادّية والامتيازات الاقتصاديّة. إنّ الشّعور بالأخوة الإنسانيّة معناه الخروج من دائرة القوميّة الضيّقة والعنصريّة المتعصّبة، وهذا ما لم تحاوله أوروبا يوماً...، وبذلك لم تعد كلمة "الإخاء" أن تكون كلمة برّاقة في مبادئ الثّورة الفرنسيّة. ثمّ عقلت أوروبا وأمريكا أن تعطي النّاس شيئاً

جديداً في هذا الحقل، واتّجهت إلى الحقل المادّي الصّناعي تُبدعُ فيه جديداً كلّ يوم. ولكنّ البشريّة لا تستطيع أن تعيش طويلاً على إنتاج المصانع وحده؛ إنّما هي في حاجة مُلحة دائمة إلى مبادئ وأفكار جديدة تسمح لها بالتّموُّ والامتداد والتّحوُّل والتّرقّي في حدود هذه المبادئ والأفكار. ولقد انتهت الحضارة الأوروبيّة الأمريكيّة إلى أن تقصر همّها على إنتاج المصانع، أمّا في حقل المبادئ فإنّها ظلت تجتث مبادئ الثّورة الفرنسيّة التي فقدت مدلولاتها)).²⁷ إنّ الإنسان هو نفسه الإنسان منذ نشأ في حاجة إلى عقيدة تعمّر قلبه، عقيدة تُفسّر له الحياة وتربط بينه وبينها، وتشغله بما هو أبعد من شخصيه وأكبر من ذاته على نحو من الأنحاء...

إنّ جوعة الجسد تُلحّ على صاحبها ليسدّها أولاً، هذا مسلّم به، ولكنّها بعد أن تهدأ تتحرّك في الكائن الإنساني جوعاً أخرى لا يسدّها الطّعام، ولا يروّبها الشّراب، ولا يكفيها الكساء، ولا تسكنها كلّ لذائذ الجسم وشهواته، إنّها جوعاً من نوع آخر لا بدّ لها من هدف إنساني أكبر من المَلذّات ومن صلة بالكون أشمل من البيئته، ومن عقيدة في قوّة أكبر من البشريّة ومن مستقبل دائم التّموُّ لا يقف عند حدٍّ محدّد. فإذا اطّلت البشريّة على نظام يحمل مثل هذه الفكرة ويتضمّن مثل هذه العقيدة، وفي ذات الوقت يتضمّن لها عدالة اجتماعيّة دائمة متجدّدة لا تقف عند تسوية طبقة على طبقة ولا عند حدود الاكتفاء المادّي؛ إنّما تدعُ الحياة متجمّدة أبداً مترقّية أبداً، متّصلة بعد كلّ هذا كلّها بالسّماء... إذا اطّلت الإنسانيّة على نظام كهذا فذلك حلّمها الدّائم الذي لا يدركه الفساد. وهذا ما يجعلنا نخالف الفيلسوف الغربي فيما هداه إليه ضميره الغربي، وما يجعلنا نعتقد بقوة أنّ المستقبل في أرض الإسلام للإسلام، وأنّ المستقبل في الأرض كلّها كذلك للإسلام. والفكرة الوحيدة التي عرفتها البشريّة وتتحقّق فيها هذه السّمات التي أسلفنا هي فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان.

إنّ الإسلام بالذّات كان ثورة تحريريّة حرّرت الفكر كما حرّرت الرّوح، حرّرت الفكر من الوهم والخرافة ووجّهته إلى تنمية الحياة في الأرض دون تخوُّفٍ

من الطَّبِيعَةِ الَّتِي عَقَدَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَوَاصِيرَ الصَّدَاقَةِ الْقُرْبَى وَصَوَّرَتْهَا لَهُ عَوْنًا مُسَاعِدًا لَا عَدُوًّا مُنَازِعًا، وَحَرَّرَتْ الرُّوحَ مِنَ الْهَبْوَطِ وَالتَّرْوِي، وَأَطْلَقَتْهُ يَرْتَادُ الْآفَاقَ الْعُلْيَا وَجَذَبَ الْحَيَاةَ كُلَّهَا إِلَيْهَا، لِذَلِكَ نَمَتِ الْحَيَاةُ فِي ظِلِّهِ نَمُوًّا سَرِيعًا، وَمِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ النَّامِيَةِ فِي ظِلِّهِ اسْتَمَدَّتْ أُرُوبًا فِي جِهَاتِهَا، وَأَقَامَتْ الْأَسَاسَ الَّذِي نَهَضَتْ عَلَيْهِ حَضَارَتُهَا..، إِنَّ كُلَّ مَا فِي الْإِسْلَامِ مِنْ مِيزَةٍ أَنَّهُ يَشَدُّ هَذِهِ الْحَيَاةَ النَّامِيَةَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَى آفَاقِهَا الْعُلْيَا فِي السَّمَاءِ كَيْ لَا تَتَرَدَّى فِي حُضِيضِ الْمَادِّيَةِ الْمَطْلُوقَةِ فَتُصَابُ بِالْجَفَافِ وَالْخَوَاءِ الَّذِي انْتَهَتْ إِلَيْهِ حَضَارَةُ الرَّجُلِ الْأَبْيَضِ؛ وَهِيَ فِي أَوْجِهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الصَّنَاعِيَّةِ وَالْإِنْتَاجِيَّةِ. وَلَقَدْ فَتَحَ الْإِسْلَامُ فِي مَوْجَةِ الْمَدِّ الْأُولَى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُفْتَحَ مِنَ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ بِاسْمِ هَذِهِ الثَّوْرَةِ التَّحْرِيرِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُحْمَلُ لَوَاءُهَا، لَا بِقُوَّةِ السَّيْفِ الْحَدِيدِيِّ أَوْ قُوَّةِ الْاِقْتِصَادِ الْمَادِّيَةِ، وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْقُوَّةُ وَحْدَهَا لَتَنْسَاحَ بِهِ فِي فِجَاجِ الْأَرْضِ بِمِثْلِ هَذِهِ السَّرْعَةِ الَّتِي لَا تَبْلُغُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا سَرْعَةُ الْاجْتِيَاكِ +الِهْتَرِيِّ" فِي الْعَهْدِ الْأَخِيرِ، مَعَ التَّفَوُّقِ السَّاحِقِ لِلْجِيُوشِ +الِهْتَرِيِّ" فِي بَدْءِ الْحَرْبِ؛ سِوَا فِي السَّلَاحِ أَوْ فِي الرِّجَالِ أَوْ فِي الْخُطَطِ الْحَرْبِيَّةِ، وَهَذَا التَّفَوُّقُ الَّذِي لَمْ تَكُنْ جِيُوشُ الْإِسْلَامِ تَتَمَتَّعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ فِيمَا عَدَا بَطُولَةَ الرُّوحِ دَائِمًا، وَعَبَقْرِيَّةَ الْقِيَادَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ²⁸. أَمَّا التَّفْسِيرُ الطَّبِيعِيُّ الشَّامِلُ لِقُوَّةِ انْسِيَاكِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ كَامِنٌ فِي طَبِيعَةِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ وَفِي طَبِيعَةِ النِّظَامِ الَّذِي يَنْبُعُ مِنْهَا. وَفِي تَلْبِيَةِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ لِلْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ تَلْبِيَةً كَامِلَةً وَفِي الثَّوْرَةِ التَّحْرِيرِيَّةِ الَّتِي تَمَثِّلُهَا فِي ذَلِكَ الزَّادِ التَّقْدِيمِي الَّذِي تَحْمِلُهُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ وَتَلْبِيَةً بِرَغْبَتِهَا الدَّائِمَةِ فِي التَّطَلُّعِ إِلَى تَحْقِيقِ حُلْمٍ بَعْدَ حُلْمٍ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ. وَقَدْ كَانَ رِجَالُ وَقُودٍ وَشُعُوبٌ يَنْضَمُّونَ إِلَى جَبْهَةِ الْإِسْلَامِ رَاضِينَ مُتَطَوِّعِينَ لِمَا كَانُوا يَلْمُسُونَهُ مِنَ الْعَدَالَةِ وَالتَّوَاظُنِ فِي ظِلِّ النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي طُبِّقَ فِي بِلَادٍ مُجَاوِرَةٍ، وَمِنْ التَّحَرُّرِ الْوُجْدَانِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ السَّائِدِ فِي هَذَا النِّظَامِ²⁹.

يَقُولُ +سِيرَت. وَ. أَرْنُولْدُ": (وَلَمَّا بَلَغَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ وَادِي الْأُرْدُنِ، وَعَسْكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي فَحْلٍ، كَتَبَ الْأَهَالِي الْمَسِيحِيُّونَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْتُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ الرُّومِ وَإِنْ كَانُوا عَلَى دِينِنَا، أَنْتُمْ أَوْفَى لَنَا

وأرأفُ بنا، وأكفَّ عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكثهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا"، ويقول أيضاً: (وأغلق أهلُ حمص أبواب مدينتهم دون جيش +هيرقل" وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعد لهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم).³⁰ ولم يكن العدل والحرية وحدهما هما اللذان يدفعان بالجموع إلى الناس في صورة عقيدة تدفعهم إلى فتح أبوابهم له - ولو لم يعتنقه لسبب من الأسباب الخاصة -، المهم هو الثقة بهذا الدين ونظامه، واليأس من الظلم الأخرى التي كانت سائدة في زمانه، وفي ذلك يقول +ج. ه. دينسون³¹: (ففي القرن الخامس والسادس كان العلم المتمددين على جرفٍ هائلٍ من الفوضى؛ لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثم ما يعتمدُ به ممَّا يقوم مقامها، وكان يبدو إذ ذاك أن المدينة الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تتحارب وتتأخر، لا قانون ولا نظام، أما الظلم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانحيار بدلاً من الاتحاد والنظام، وكانت المدينة كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترجح، وقد تسرب إليها العطب حتى الثباب..، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه).³²

هذا؛ وقد تمكن الإسلام بعد توفيقه سبحانه وتعالى من مد جسور التواصل في إسعاف النائه الغلبان، واستطاع عن طريق هذا الاتصال أن يؤثر في النهضة الأوروبية الأخيرة التي جاءت أثراً مباشراً للحروب الصليبية ولقيام دولة الأندلس في اسبانيا باعتراف الأوروبيين أنفسهم، حيث استطاع في هذا المجال أن يؤثر ما لم تؤثره المسيحية التي كانت ومازالت الديانة الرسمية للرقعة الأوروبية، ومرد ذلك كله إلى طبيعة الإسلام الإيجابية، وطبيعة المسيحية السلبية فيما يختص بالتنظيم العملي للمجتمع؛ فالمسيحية لم تكن يوماً قادرة على التأثير الكامل في المجتمع الغربي القائم على التقاليد الرومانية لأنها لم تقدم لهذا صورة عملية واضحة للمجتمع الذي تريده - وإن كانت قد قدمت صورة شاعرية رقيقة للفرد

الذي تريده - . أمّا الإسلام فقد قدّم الفِكرَةَ وقدّم معها ترجمتها العمليّة في صورة مجتمّع، ومع أنّ صور المجتمعات الإسلاميّ لم تكن في الأندلس ولا في أيام الحرب الصليبيّة هي غير الصّور التي يُقدّمها الإسلام، فإن بقي فيها من آثار الفِكرَةِ الإسلاميّة الكبرى ومن آثار الحضارة المادّيّة والعقليّة كان كفيلاً بأن يُبهر الأوروبيّين في ذلك الحين، وأنّ يدفعَ بهم دفعةً قويّة إلى عصر الأحياء، وأن يُثيرَ في رؤوسهم فكرة الحرّية والإخاء والمساواة مبلّورة فيما بعد في النّورة الفرنسيّة التي تعدّ آخر دفعيّة من دفعات الحضارة الغربيّة في المجال الإنساني.³³

إنّ الصّراع الحقيقي القائم بين الفكرتين الرّئيسيتين في العالم (بين الفكرة الإنسانيّة التي يمثّلها الإسلام، وبين الفكرة المادّيّة بزعامة الغرب) يوصلنا حتماً في النّهاية - يقيناً وقطعاً جازماً - إلى النّتيجة الأخيرة لهذا الصّراع - ولا نرتاب لحظة في قول ذلك -؛ وهي أنّ العاقبة للإسلام.

طبيعة المجتمع الإسلامي:

مما لا شكّ فيه أنّ المجتمع الإسلامي ليس هو من صنع الشريعة؛ وإنّما الشريعة هي التي صنعت المجتمع الإسلامي، وهي التي حدّدت له سيماته ومقوماته، وهي التي وجّهته وطوّرتّه، ولم تكن الشريعة مجرد استجابة للحاجات المحليّة الموقوتة - كما هو الشأن في التشريعات الوضعيّة -؛ وإنّما كانت منّهاجاً إلهياً لتطويع البشريّة كلّها وصياغتها صياغة معيّنة ودفعها إلى أوضاع يتمّ بها تحقيق المجتمع الإسلامي المنشود...، وكلّما انقضى الزّمن وارتفعت درجة المعرفة البشريّة كانت أقرب إلى تحقيق ذلك المجتمع المنشود...، وهذه السّمات ذات أثر حاسم في تحديد طبيعة المجتمع الإسلامي، وتمييزه عن جميع المجتمعات التي نشأت نشوءاً ذاتيّاً، وأنشأت قوانينها وفق التّغييرات المحدودة التي تتألّ حياتها يوماً بعد يوم.

هذا؛ وتكمن مهمّة التشريع في المجتمع الإسلامي كانت دائماً محكومة بأصل ثابت هو الشريعة الإسلاميّة، ومع أنّ الفقه الإسلامي كان تليّة مستمرّة لبروز الحاجات في المجتمع وتجدد الارتباطات؛ إلّا أنّه لم يكن طليقاً لأنّه كان

دائماً مشدوداً إلى ذلك الأصل الثابت، محافظاً على المبادئ الأساسية والسمات الأولية التي أراد الله لها الدوام في المجتمع الإسلامي. وبذلك تقوم الشريعة الإسلامية مقام السياج الواقعي³⁴ الذي يسمح للمجتمع الإسلامي بالنمو والتجدد - ولكن داخل هذا السياج، ووفق مقومات أصيلة ثابتة-؛ وبالتالي يظل الطابع الأصيل للمجتمع الإسلامي واضحاً مميزاً، بينما المجتمعات الغربية كان في وسعها دائماً أن تنمو وفق المؤثرات الواقعية، غير متقيدة بأصل ثابت، ذلك أن المسيحية لم تكن يوماً ما نظاماً اجتماعياً، وذلك بحلولها من الشريعة التي تتولى تنظيم المجتمع وفق نظرية محددة. هذه هي القاعدة على وجه الإجمال، فإذا دلّ التتبع التاريخي للمجتمع الإسلامي في كون أن هذا المجتمع كان ينحرف أحياناً هنا أو هناك عن قاعدته الأساسية التي وضعتها له الشريعة الإسلامية متأثراً بمبادئ غريبة عليه، أو منساقاً مع التطورات البشرية في بعض رقاع الأرض، أو بسبب مؤثرات محلية في بعض الأقاليم التي انضمت إليه..؛ فإن هذا كله لا يجوز أن ينسبنا أن تلك القاعدة الأساسية ظلت من القوة بحيث تشد إليها المجتمع الإسلامي شداً قوياً، وتطبعه بطابع خاص، وتحدد طريقة نموه؛ وتجعل هذا النمو والتطور تاريخاً خاصاً لا يندرج تحت تاريخ التطور الاجتماعي في أوروبا، ولا تصدق عليه القوانين الاجتماعية التي تصدق هناك... ومثل هذه الظاهرة ستظل ثابتة في المستقبل - لأن المستقبل لا يمكن فصله عن الماضي -؛ فليس هناك ما يحتم أن يسلك المجتمع الإسلامي في المستقبل أي طريق تكون المجتمعات الغربية قد سلكته، ذلك لأن سياج الشريعة الإسلامية سيظل يحرس هذا المجتمع مهما كانت عوامل المقاومة وطبيعتها، فأربعة عشر قرناً من الزمن لا يمكن محوها من ذاكرة أو تاريخ مجتمع، ولا من ضمير أمة، ولا من واقع حياة.³⁵

((إن النظام الاجتماعي الإسلامي - وقد انبثق من العقيدة الإسلامية، وتكيف وجوده بالشريعة الإسلامية - يجب أن يظل دائماً خاضعاً في نموه وتجده للأصل الذي انبثق منه، وللشريعة التي كيفت وجوده، يجب أن تكون الشريعة الإسلامية هي المسيطرة على كل تطور في نظام المجتمع الإسلامي، وألا يترخص

هذا النظام في اتجاه من اتجاهاته الكلية أو الجزئية خُصُوعاً لأوضاع أجنبية عن طبيعته تضغط عليه من الخارج، بينما هو يملك تلبية جميع الحاجات المتجددة في حدود قانونه هو، وحسب اتجاهه الذاتي، وقد تضمن في صلبه طريقة مواجهة كل حاجة وكل ضرورة، وطريقة تقدير الضرورات الواقعية التي لم يدع تقديرها للبشر جزافاً؛ إنما نصّ على بعضها صراحةً، وحدد طرق القياس على ما نصّ عليه، ليظل تقدير الضرورات والحاجات محكوماً بقانونه الذاتي)).³⁶

الخاتمة:

يُؤسفني في الأخير بأن أقول: إن الابتعاد عن القيم الإسلامية الراقية أدى بأن ((ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَمَّا كَسَبْتَ أَيُّدِي النَّاسِ))³⁷ على كل المستويات الفكرية والعملية أغرقت الإنسان في أزمت لا يحصيها إلا رب السماوات والأرض، ولا يعلم عواقبها إلا علام الغيوب. لقد اغتر الإنسان بعلمه المنفصل عن الوحي، وعمله المجرد من الإيمان؛ ففسد وأفسد، وضاع وأضاع في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ((وَبَرِّكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا يَمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)).

³⁹ فكان على علم العقيدة اليوم أن يتسلح بالمنهج العلمي المعاصر، ويتصدى لهذا التحدي؛ بتبيان حقيقة الإنسان في العقيدة الإسلامية من حيث الأصل والمصدر، والغاية والوظيفة؛ ليعت فيه الأمن والأمان، والأمل والطمأنينة؛ لينقذه وينقذ العالم كله من دمارٍ مؤكّدٍ مادّيٍّ ومعنويٍّ.

هذا؛ وأختم بحثي بقول الشيخ العلامة الجزائري +عبد الرحمن التّعالبي

— رحمه الله تعالى — في ذكر الموت وحسن الاستعداد له، وقصر الأمل؛

حيث يقول:

تَزَوَّدْ مِنْ مَعَاشِكَ لِلْمَعَادِ *** وَقُمْ لِلَّهِ وَاعْمَلْ خَيْرَ زَادٍ

وَلَا تَجْمَعْ مِنَ الدُّنْيَا كَثِيرًا *** فَإِنَّ الْمَالَ يُجْمَعُ لِلنَّفَادِ

أَتَرْضَى أَنْ تَكُونَ رَفِيقَ قَوْمٍ *** لَهُمْ زَادٌ وَأَنْتَ بَغِيرُ زَادٍ؟⁴⁰

تَمَّ الْكَلَامُ وَرَبُّنَا الْمَحْمُودُ *** وَلَهُ الْمَكَارِمُ وَالْعُلَا وَالْجُودُ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ

الهوامش

- 1- أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب: محمد كاظم سباق، ط: 6، دار القلم، - الكويت: 1397هـ، ص: 116 - 118.
- 2-La religion est un système solidaire des croyances et des pratiques relatives à des choses sacrées, c'est-à-dire séparées, interdites – croyances et pratiques qui unissent en même communauté moral appelée église, tous ceux qui y adhèrent (Durkheim, Formes Élémentaires de la Vie Religieuse, p:65).
- 3- د.محمد عبد الله دراز (عضو جماعة كبار العلماء)، الدين - بحوث ممهّدة لدراسة تاريخ الأديان، ص: 29.
- 4- د.محمد عبد الستار نصّار (جامعة الأزهر - جامعة قطر)، دراسات في فلسفة الأخلاق، ط: 1، دار القلم - الكويت: 1402هـ / 1982م، ص: 17.
- 5- د.محمد عبد الرحمن بيسار، العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، منشورات: المكتبة العصرية - بيروت: 1980م، ص: 219 (بتصرف).
- 6- د.محمد عبد الستار نصّار، دراسات في فلسفة الأخلاق، ص: 19.
- 7- وخلاصة القول أنّ الأديان تحلّ من الجماعات محلّ القلب من الجسد، وأنّ الذي يؤرّخ الديانات كأنما يؤرّخ حياة الشعوب وأطوار المدنيّات. أنظر: د.محمد عبد الله دراز، الدين، ص: 104 وما يليها.
- 8- الخبز القفار هو الخبز الذي لا ادم فيه.
- 9- نقلاً عن: زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ط: 1، دار الجيل - بيروت: 1408هـ/ 1988م، ص: 254 - 257.
- ونلاحظ هنا بأنّ +الغزالي" يركّز كثيراً على تربية الطّفل ويشدّد فيها؛ لأنّ هذا الأخير يُعتبر النّواة الأولى في تكوين جيل واع ومجتمع راقٍ بأخلاقٍ كريمةٍ فاضلة.
- 10- سورة: التّوبة، الآية: 105.
- 11- أنظر: الشّيخ نعيم قاسم، مقال بعنوان: التّربية على القيم الإسلاميّة - حاجة واقعيّة لبناء واقع أمثل -، مجلّة: الحياة الطّبيّة (مجلّة فصليّة متخصصة تعنى بقضايا الفكر والاجتهاد الإسلامي، تصدر عن جامعة المصطفى العالميّة - فرع لبنان)، ع: 24، السنة الخامسة عشر، شتاء 1433هـ/ 2012م، ملف العدد: القيم - خطوة تأسيسيّة لبناء مجتمع حضاري -، ص: 69.
- 12- سورة: العنكبوت، الآية: 45.

- 13- سورة: البقرة، الآية: 183.
- 14- سورة: البقرة، الآية: 197.
- 15- راجع: الشيخ نعيم قاسم، مقال بعنوان: التربية على القيم الإسلامية، مجلة: الحياة الطيبة، ع: 24، ص: 70.
- 16- أنظر: طه عبد الرحمن، روحُ الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ط: 1، نشر: المركز الثقافي العربي: 2006م، ص: 175 - 206.
- 17- راجع: د. صالح نعمان (أستاذ بقسم العقائد والأديان، ومدير مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة)، افتتاحية مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان (دورية أكاديمية متخصصة محكمة، تعنى بالدراسات العقدية ومقارنة الأديان والفلسفة، يصدرها مخبر البحث في الدراسات العقدية ومقارنة الأديان بجامعة الأمير + عبد القادر - قسنطينة / الجزائر)، ع: 05 (رجب 1430هـ / جويلية 2009م)، ص: 6 وما يليها.
- 18- أنظر: محمد المبارك، نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - رسائل إسلامية المعرفة 2 -، دار: البعث - قسنطينة / الجزائر: 1989م، ص: 30 وما يليها.
- 19- وبناءً على هذا يجب أن نتذكّر منذ البداية أنّ الفكر الإسلامي هو جزءٌ من الدعوة الإسلامية، وليس هو الدعوة الإسلامية كاملةً.
- 20- وقد استشهد الغزالي هنا بهذا الحديث البديع: ((يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنّه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته)).
- 21- أنظر: زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص: 269 - 271 (بتصرف).
- وقد يرى القارئ في هذا شيئاً من التكرار، فهذا أيضاً يمثلُ وجهة "الغزالي" في "الأخلاق"؛ فهو كثيرُ الحذر، شديدُ الحيطة، ولا يزالُ بالمعنى يُردّده في كتبه؛ بل في الكتاب الواحد حتى يرسخ في نفس المستفيد.
- 22- فالإنسان وسيلة وجهلها - أي: جهل هذه الوسيلة - يُخلُّ بمعرفة الكون.
- 23- أنظر: د. محمد عبد الرحمن بيبصار، العقيدة والأخلاق، ص: 67 - 74.
- 24- جريدة الأهرام، بتاريخ: 09 أوت 1951م.
- 25- سيّد قطب، نحو مجتمع إسلامي، دار الكوثر - برج الكيفان، ص: 17 وما يليها.
- 26- فكما يقول أستاذنا الفاضل: الدكتور + عمّار جيل " بأنّ الحرية عين العبوديّة والعبوديّة عينُ الحرية، فمن كان يستجيب لشهواته فهو عبدٌ لها غير حرّ - وإن كان يظنّ نفسه بأنّه حرّ -.
- 27- سيّد قطب، نحو مجتمع إسلامي، ص: 18 - 22.

- 28- المرجع السابق، ص: 35 وما يليها.
- 29- المرجع السابق، ص: 36 وما بعدها.
- 30- أنظر: سيرت . و . أرنولد، الدّعوة إلى الإسلام، تر: أ. إبراهيم حسن وزميله، نقلاً عن: سيّد قطب، نحو مجتمع إسلامي، ص: 37.
- 31- وذلك في كتابه الموسوم ب: "العواطف كأساس للحضارة" = "Emotions of the Basis of Civilisation".
- 32- مولاي محمد علي، الإسلام والنّظام العالمي، تر: أ. أحمد جودة السّحّار، نقلاً عن: سيّد قطب، نحو مجتمع إسلامي، ص: 37 وما بعدها.
- 33- أنظر: المرجع السابق، ص: 43 وما بعدها.
- 34- المرجع السابق، ص: 65.
- 35- المرجع السابق، ص: 65 وما بعدها.
- 36- المرجع السابق، ص: 138.
- 37- سورة: الرّوم، الآية: 41.
- 38- سورة: غافر، الآية: 81 - 85.
- 39- راجع: د. صالح نعمان، (أستاذ العقيدة والفلسفة بقسم العقائد والأديان، ومدير مخبر الدّراسات العقديّة ومقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة)، مقال بعنوان: في مواجهة التّحديات المعاصرة، مجلّة الدّراسات العقديّة ومقارنة الأديان (دوريّة أكاديميّة متخصصة محكمة، تعنى بالدّراسات العقديّة ومقارنة الأديان والفلسفة، يصدرها مخبر البحث في الدّراسات العقديّة ومقارنة الأديان بجامعة الأمير + عبد القادر - قسنطينة / الجزائر)، ع: 03 (جمادى الثّانية 1427 هـ / جويلية 2006 م)، ص: 47 وما يليها.
- 40- نقلاً عن: أ. لمرطيات، (أستاذ بقسم العقائد والأديان بجامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة)، مقال بعنوان: أشعار الرّقائقي المؤصّلة لعقيدة اليوم الآخر عند العلّامة الجزائري + عبد الرّحمن التّعالبي من خلال كتابه: "العلوم الفاخرة في النّظر في أمور الآخرة"، مجلّة الدّراسات العقديّة ومقارنة الأديان (دوريّة أكاديميّة متخصصة محكمة، تعنى بالدّراسات العقديّة ومقارنة الأديان والفلسفة، يصدرها مخبر البحث في الدّراسات العقديّة ومقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة / الجزائر)، ع: 02 (شعبان 1426 هـ / سبتمبر 2005 م)، ص: 504.